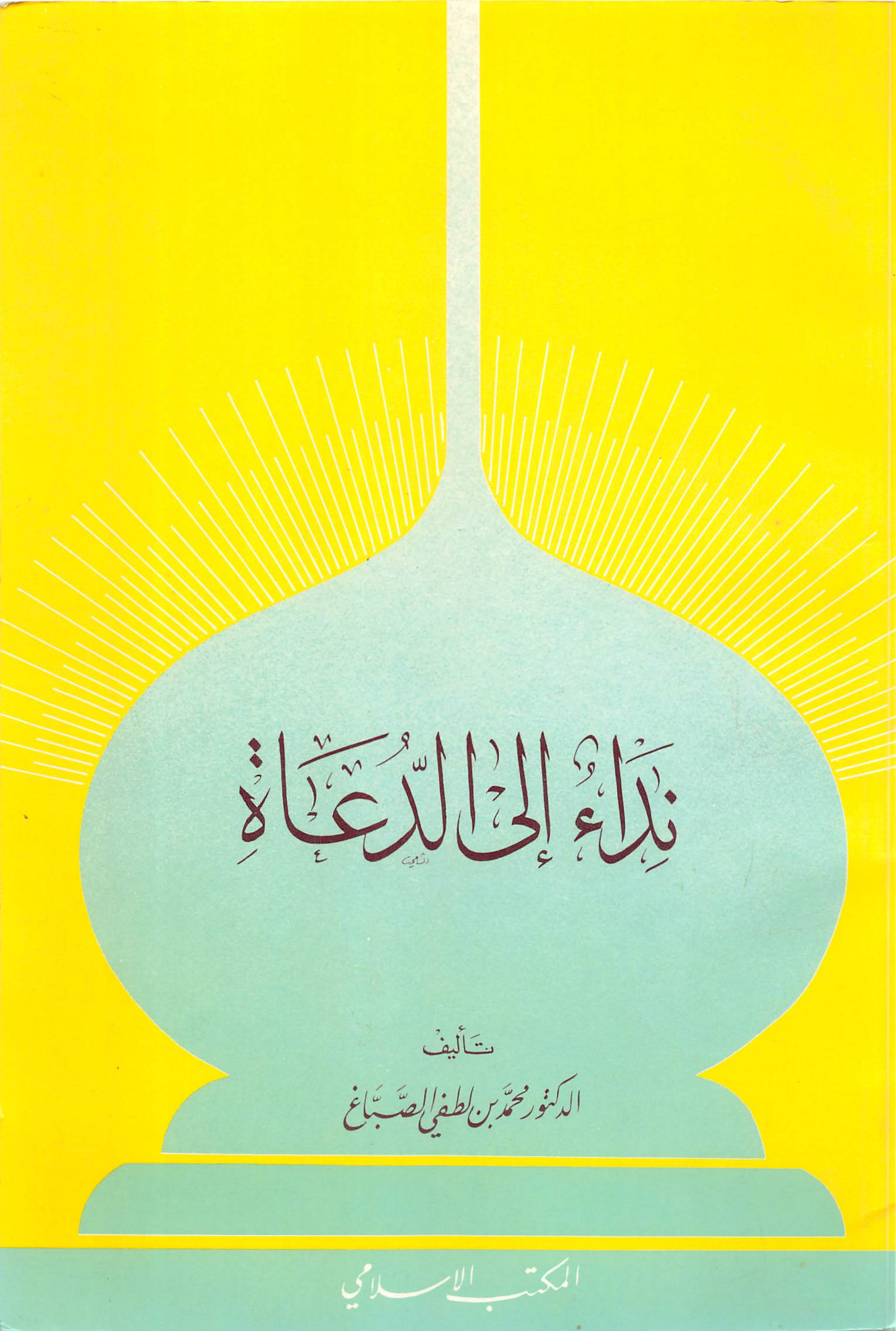


نداء إلى الدعاة
تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ
المكتب الإسلامي





نداء إلى الدعاة





تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصبّاغ

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وخاتم رسل رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، *أما بعد*

فهذه الرسالة محاضرة كنت ألقيتها في ندوة علمية إسلامية عقدت في سنة ١٤٠١هـ (١٩٨١م)[١]، ضمت عدداً من العلماء والدعاة، بيَّنتُ فيها المنطلق الأول والأهم في الدعوة إلى الله وهو الولاء للكتاب والسنَّة.

وقد عدت إليها من جديد فقرأتها ونظرت فيها، فرأيت أن

---

(١) وكنت قبل ذلك قد دعيت إلى المشاركة في ندوة عنوانها: «السنة ومكانتها» أقامتها جامعة صنعاء في أثناء زيارتي لليمن، فاستجبتُ شاكراً، وقد اشترك معي في هذه الندوة د. أحمد العسال ود. حامد السالم وكان ذلك عصر يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٣٩٩ (الموافق ٢٠/٣/١٩٧٩).

أقدمها للنشر وأن أضعها بين أيـدي الدعـاة والعاملين في المجـال الإسلاميّ لأمرين:

١ ـ لأنَّ نفـع الكلمة المطبوعة أعم وأشمل، وأبقى وأدوم، وإني لأرجو أن ينفـع اللَّهُ بها عدداً من هؤلاء الشباب الصـالحين، ولعلّي أحظى بدعوة طيبة منهم.

٢ ـ لأنّ الهجمة على السنة ازدادت حدّة وشراسة في الآونة الأخيـرة، فقد تعـدّدت مشارب المهاجمين لها، واختلفت دوافعهم ومقاصدهم، وتنوعت وسائلهم:

* فهناك الملحدون الذين يحاربون الإسلام عن طريق مهاجمة السنة والتشكيك بها.

* وهناك بعض أتباع الفـرق المنحرفـة الذين ينكـرون السنة ويتطاولون على الصحابة.

* وهناك بعض الطواغيت الدجـالين الـذين يهاجمـون السنة ويحكمون أهواءهم ومصالحهم في إثبات الأحاديث ونفيها.

* وهناك الجهلة المغفَّلون الذين لُبِّسَ عليهم الأمر فانـدفعوا يرددون ما سمعوا دون وعي ولا معرفة.

* وهناك بعض المنتسبين إلى العلم الذين انـطلقوا يسيـرون في هـذا الاتجـاه الهــدام أو دُفِعُوا إليــه، فكـانــوا أسـوأ جميـع

المهاجمين وأخطرهم[1].

ـ وإذا كان في هذه الرسالة ردٌّ عليهم فذلك أمر لم أقصده، لأنني عندما كتبتها لم يكن يدور بخلدي شيء من ذلك.

ـ إنّ الدعوة إلى الله يجب أن تكون مبنيّة على أساس متين من العلم، ولا يجوز أن تبقى العاطفة المضطرمة هي الدعامة الوحيدة التي تقوم عليها.

إنّ الإقبال العظيم على الإسلام من الشباب والشابات في كافة أنحاء العالم الإسلامي يجب أن يواجه بالفكر المحدّد، الواضح المعالم، المعتمد على الحجج العلمية؛ لنضمن استمرار هؤلاء المقبلين، ولنحصّنهم من الشبهات التي يطرحها أمامهم أعداء الإسلام.

إنَّ علينا أن نعرض الإسلام كما هو في مصدريه الخالدين: الكتاب والسنّة، نعرضه كما تقتضي النظرة الموضوعية في هذين المصدرين بعيداً عن التأثر بالأوضاع السياسية القائمة، والتيارات

---

(١) ظهر أخيراً كتاب يعجّ بالآراء المنحرفة، يسخر مؤلفه ممن يأخذون بالحديث الصحيح ويقدمونه على رأي الرجال، وينكر الأخذ بأحاديث الآحاد، ويرد كثيراً من الأحاديث معتمداً على الهوى... وهو معمم وله وجه إسلامي.. هدانا الله وإياه.

الفكرية المعاصرة التي تعصف بفكر كثير من الناس والحضارة المادية الغازية. إنها مهمة القيادة الفكرية المتمثلة في أهل العلم من حملة الأقلام وأرباب البيان، والدعاة وقادة الجماعات الإسلامية في العالم.

وإني لأهيب بالعلماء الموهوبين أن يتقدموا للقيام بهذه المهمة: مهمة توجيه هؤلاء الشباب الصادقين، وأن يحددوا المبادىء والأهداف ومناهج الدعوة ووسائلها المقترحة، المبنية على العلم والمعرفة والتجربة. وأن يكون ذلك كله بعد دراسة مستوعبة، ومراجعة لتاريخ العمل الإسلامي، ونقد ذاتي موضوعي. والله ولي التوفيق وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الجمعة في ٢٢ رمضان سنة ١٤٠٩هـ
٢٨ نيسان سنة ١٩٨٩م

محمد بن لطفي الصباغ

* * *

المنطلق الأول والأهم

إنَّ البحث في المنطلق الأول والأهم من منطلقات العمل الإسلامي يحتاج إلى وقت وعلم وبيان، ولم يتوافر لي شيء كثير من ذلك.

وقد جئت لأستفيد، ولكني استجبت لرغبة الإخوة الأفاضل، فكتبتُ هذه السطور فإن أخطأت فعذري أني بذلت جهدي، وإن أصبت فذلك فضلٌ من الله. وإني أعتذر إليكم إن ذكرتكم ببعض الأمور المسلَّمات في العمل الإسلامي.

إنَّ من أهمّ المنطلقات في العمل الإسلامي الاعتماد على الكتاب والسنة وعياً وفهماً وتطبيقاً. الاعتماد عليهما في كل موقف حركي، وفي كل رأي، واستلهامهما في الأمور الاجتهادية الطارئة؛ ذلك لأن العمل لا يكون إسلامياً حتى يكون معتمداً عليهما، ملتزماً بهما، واقفاً عند حدودهما.

القرآن: إنّ علينا أن نربي أبناءنا على مبادىء هذا الكتاب الكريم وعلى التعلق به تلاوة وفهماً وحفظاً. .

إنّ علينا أن نطمئنَّ إلى معرفتهم التامة بهذا القرآن، وإلى إحيائهم تعاليمه عملياً في حياتهم: يُحلُّون حلاله، ويُحرِّمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه. ويعيدون سيرة سلفهم الصالح الذي كان القرآن في حياتهم كل شيء.

قال الأستاذ سيد قطب:

[هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان، وأن يقفوا أمامها طويلاً، ذلك أنّها كانت ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها.

لقد خرجت هذه الدعوة جيلاً من الناس ـ جيل الصحابة رضوان الله عليهم ـ جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله، وفي تاريخ البشرية جميعه][1].

وقال:

[كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن. نبع القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه

---

(١) معالم في الطريق ص ١٣.

إلّا أثراً من ذلك النبع[1]. فعندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن».

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات ولا دراسات. . . كلا! فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه، أو على امتداده. وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها، وهو ما لا يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم. وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك. وحضارات أخرى قاصية ودانية، حضارة الهند وحضارة الصين. إلخ. وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة. . فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده. . في فترة تكوينه وإنما كان ذلك عن «تصميم» مرسوم، ومنهج مقصود. يدل على هذا القصد غضب

---

(١) أي أن القرآن والحديث يشكلان مصدراً واحداً. وتتمة الكلام تدل على هذا المعنى، ذلك لأنهما يعودان إلى أصل واحد وهو الوحي.

رسـول الله ﷺ وقد رأى في يـد عمـر بن الخـطاب رضي الله عنـه صحيفة من التوراة وقوله:

«. . وإنه والله لو كان موسى حيـاً بين أظهركم مـا حلّ لـه إلا أن يتبعني»[1]. . .

وإذن فقد كان هنـاك قصد من رسـول الله ﷺ أن يقصر النبـع الذي يستقي منه ذلك الجيل. . في فتـرة التكوين الأولى. . على كتـاب الله وحده، لتخلص نفـوسهم له وحـده، ويستقيم عـودهم على منهجـه وحـده. ومن ثم غضب أن رأى عمـر بن الخـطاب رضي الله عنه يستقي من نبـع آخر.

---

(١) قـال الأستاذ سيـد في التعليق عليه: [رواه الحـافظ أبو يعلى عن حمـاد عن الشعبـي عن جابر]. قلت: خرجت هذا الحـديث في تعليقي على كتاب «القصاص والمذكرين» لابن الجوزي، ص ١٦٠ فذكـرت أنه جـاء في «مسند أحمد» ٣/٣٨٧: (حدثنا سـريـج بن النعمان، قـال: حدثنـا هشيم أنا مجالد عن الشعبـي عن جابر بن عبد الله أن عمـر بن الخطاب أتى النبـي ﷺ بكتـاب أصـابـه من بعض أهـل الكتـاب، فقـرأه على النبـي ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعـه إلا أن يتبعني»). وفي سنده مجـالد وهـو ابن سعيد وهـو ليِّن. وقـد أورد ابن حجـر في «الفتـح» ١٣/٥٢٥ طرقاً عـدة لهذا الحـديث. . ثم قال بعـدها: (وهـذه جميـع طرق هـذا الحديث وهي وإن لم يكن فيها ما يحتـج به، لكن مجموعها يقتضي أنَّ لها أصلاً) وانظر أيضاً «جامـع بيان العلم» لابن عبد البر ٢/٤٢.

كان رسول الله ﷺ يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أيّ مؤثر آخر غير المنهج الإلهي الذي يتضمنه القرآن الكريم][1].

وقال: [هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع، ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد..

إنهم ـ في الجيل الأول ـ لم يكونوا يقربون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته. إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان «الأمر اليومي» ليعمل به فور تلقيه. ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحسُّ أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه. فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها. كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه. هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ..

---

(١) معالم في الطريق: ١٤ ــ ١٦.

كـان يفتـح لهم من القرآن آفـاقاً من المتـاع وآفاقـاً من المعرفـة، لم تكن لتفتـح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القـرآن بذواتهم، ويحـولـه في نفـوسهم وفي حيـاتهـم إلى منهـج واقعي، وإلى ثقافة متحـركة لا تبقى داخـل الأذهان ولا في بـطون الصحائف، إنمـا تتحـول آثـاراً وأحـداثـاً تحـول خط سيـر الحياة.

إنّ هـذا القـرآن لا يمنـح كنــوزه إلا لمن يقبـل عليــه بهـذه الروح، روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجىء ليكـون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتـاريـخ ــ وإن كان هذا كله من محتوياته ــ إنما جاء ليكون منهاج حياة، منهـاجاً إلّهياً خالصاً][1].

إنَّ أجيـال هذه الأمـة كانت تتخـرج في هذا الكتـاب ثقافـة، وظلت على ذلك إلى عصرنا، وبالنسبة إلى بلاد الشـام قد يكـون جيلي آخـر جيـل تخـرّج في هـذا الكتـاب الكـريم، فـالكتـاتيب مـدارس أولية قـائمة على القـرآن، وقد امتنـع والـدي رحمـه الله تعالى من أن ألتحق في المدارس الابتدائية العصـرية التي بـدأت تـزاحم الكتاتيب وأصـرّ أن أبقى في الكتّـاب حتى ختمت القـرآن

(١) معالم في الطريق: ص ١٧ ــ ١٩.

مـرتين وأتقنت قـراءتــه على شيخي الشيـخ سليم اللبنـي، وكـان رحمه الله من أفضل المقرئين في دمشق إتقاناً لروايـة حفص التي تلقاها عن الشيـخ محمد الحلواني، ثم بعد ذلك دخلت المدرسة الابتدائية.

وهكذا فقد كان تعلم القراءة والكتـابة في الكتـاتيب محصوراً بـالقرآن الكـريم، ثم زاحمت المدارس الـرسميـة الحـديثـة تلك الكتاتيب، وما زالت تلاحقها حتى قضت عليها وبدأت بالانقراض من بلادنا. وخسر الناس بضيـاعها خسـارة كبرى، لقـد كان فيهـا بعض العيـوب، فكان المنـطق يقضي أن تصلـح هـذه العيـوب، لا أن يقضى عليها. وكان من نتـائـج التعلم في هذه الكتـاتيب أن المرء الذي يتخرج منها يـلازم في حياتـه قراءة القـرآن، فقد كنت أرى التجـار في أسواق دمشق التجـاريـة يستقبلون يـومهم بقـراءة مقدار من القرآن فرضوه على أنفسهم، وكـذلك كـانوا في بيـوتهم يعمرونها بقراءة القرآن. . وهم ناس عاديون عوام، وكـان الواحـد منهم يختم القرآن مرة في الشهـر على الأقل، بينمـا لا نجد مثـل هذا المسلك مـع القرآن في عدد من الشباب الذين يزعمون أنهم دعاة إلى الله. . وأنهم مثقفون.

وهكـــذا أضحى المسلمــون لا يتلقــون القــرآن وفق منهـج الصحـابـة الـذي كـان يعني التنفيـذ الفـوري، ولم يعــد القـرآن هو النبـع الوحيد الذي يستقون منه، وزاد الأمـر عند أبنـاء عصرنـا

أن القرآن لم يعد المادة التي يكون تعلم القراءة من خلالها كما هو الوضع في الكتاتيب. إنَّ هذا الوضع يجب أن يتصوره الدعاة والموجهون ليقدروا المهمة التي يتصدون لها.

وسأحاول أن أورد فيما يأتي معلومات هي من المسلمات البديهية عند المسلمين.

فالقرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزل على محمد بن عبد الله نزل به الروح الأمين على قلبه ﷺ بلسان عربي مبين. وهو الكتاب المتعبّد بتلاوته، المنقول بالتواتر جيلاً عن جيل، المكتوب بالمصاحف.

ويعجبني حديث فيه وصف رائع للقرآن، ولكن هذا الحديث ضعيف فنحن نورده مع إشارتنا إلى ضعفه[1]. فقد جاء فيه:

«كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين،

---

(١) أخرج هذا الحديث الدارمي ٢/٤٣٥ والترمذي ٤/٥٢ عن علي مرفوعاً، وسبب ضعفه وجود الحارث بن عبد الله الأعور في سنده وهو ضعيف، وقد جرحه الإمام مسلم تجريحاً كبيراً في مقدمة صحيحه ١/٩ وانظر «ميزان الاعتدال» ١/٤٣٥ و«الفوائد المجموعة» ٢٩٦.

وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به﴾ [الجن: ١] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم».

والقرآن هو سبب الهداية.. وبشارة للمؤمنين بالأجر الكبير: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً﴾ [الإسراء: ٩] ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢].

وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهو السبيل المؤدية إلى السعادة، والتذكرة لخشية الله ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ [طه: ٢ ـ ٦].

وفي هذا القرآن كل ما يسعد الإنسان في دنياه وأخراه، فلقد

صرّف الله فيه من كل مثل ولكنَّ الإنسان بكفره وكثرة جداله حرم نفسه من الخير: ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلّهم يتذكرون. قرآناً عربي غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ [الزمر: ٢٧ ــ ٢٨].

وهو قرآن عربيّ: ﴿إنا أنزلنا قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [يوسف: ٢].

وهو قرآن مجيد: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢١] ﴿ق والقرآن المجيد﴾ [ق: ١].

وهو قرآن كريم: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٧].

وهو قرآن حكيم: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ [يس: ١] ﴿آلر. تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ [يونس: ١].

وهـو كتاب عظيم: ﴿ولقد آتينـاك سبعـاً من المثـاني والقـرآن العظيم﴾ [الحجر: ٨٧].

وهـو كتـاب مبين: ﴿طس. تلك آيـات القـرآن وكتـاب مبين. هـدى وبشرى للمؤمنين الـذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الـزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ [النمل: ١ ـ ٣] ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لـينــذر مـن كــان حيــاً ويـحـق الـقــول عـلى الـكــافــريـن﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

وهو كتاب مبارك: ﴿وهذا كتـاب أنزلنـاه مبارك مصـدق الذي بين يـديه ولتنـذر أم القرى ومن حـولهـا﴾ [الأنعـام: ٩١] ﴿وهـذا كتــاب أنـزلنــاه مبــارك فــاتبعــوه واتقــوا لعلكم تــرحمــون﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وهذا القرآن ميسر: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر: ١٧].

وهـذا القرآن أنـزل ليحكم حيـاة الناس: ﴿إنـا أنـزلـنـا إليـك الكتاب بالحق لتحكم بين النـاس بما أراك الله ولا تكن للخـائنين خصيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

وهو كتاب عزيز: ﴿وإنَّهُ لكتابٌ عـزيزٌ لا يـأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

وهـو هدى وشفـاء للمؤمنين، وعمىً على الكـافـرين: ﴿قـل هـو للذين آمنوا هـدىً وشفـاء والـذين لا يؤمنـون في آذانهم وقـرٌ وهو عليهم عمىً﴾ [فصلت: ٤٤].

* * *

خلود القرآن الكريم

[والقـرآن الكريم بـاقٍ ما بقيت الـدنيا، يتحـدّى كل عـوامـل الإفناء والفناء، وذلك **بحفظ الله له**، فلقـد تولى الله تبـارك وتعالى حفـظه. قال تعـالى: ﴿إنا نحن نـزلنا الـذكر وإنـا له لحـافظون﴾ [الحجـر: ٩]. ولم يكله إلى الناس يحفـظونه كمـا فعل سبحـانـه بالكتب السابقة. قال تعـالى: ﴿إنا أنـزلنا التـوراة فيها هُـدَىً ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربّانيون والأحبـار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ [المائدة: ٤٤].

وبما تضمنه من الحلول المحكمة لكل مشكلات الإنسان في كـل زمان ومكـان، وذلك لـكمـال شريعتـه، إذ كـان آخـر الكتب السمـاويـة ﴿اليـوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾ [المائدة: ٣].

ومن أدلـة خلود هـذا الكتـاب أنَّ الإنسـانيـة رأت كثيـراً من الـروائـع أعجب بهـا النـاس حينـاً من الـدهـر، ثم لم تلبث هـذه

الـرـوائـع أن بليت، واستنفدت أغـراضهـا، وأصبحت قـطعـة من الماضي لا تتصل بحـاضر النـاس بسبب، أو أن يكون قـد سحب عليها النسيان بذيله فلم يَعُدْ لها وجود على الإطلاق.

كم طــرحت حلول! وكم عـرضت نــظريــات! وكم أعلنت مبـادىء ادّعت قدرتهـا على حلّ معضـلات الحياة!! ولم تلبث أن عجزت وأفلست وتوارت ولم يعد يذكرها أحد. أما القـرآن الكريم فهو الخالد إلى أبد الدهر، الجديد الذي لا تبلى جدته مهما تقدم الزمان][1].



(١) لمحات في علوم القرآن، ٢٧ ـــ ٢٨.

القرآن أساس الإصلاح

إن واقع المسلمين الحالي بحاجة إلى إصلاح، ولا بد أن يكون أساس الإصلاح عند من يدعو إلى الإسلام هو القرآن الكريم، ولنا عبرة بأحداث التاريخ.

[كان القرآن الكريم المشعل الوقّاد والمنار المضيء، ينير لأجيال أمتنا الطريق نحو المجد والرفعة، والسعادة وقيادة الدنيا إلى الخير والحق.

بل لقد كان القرآن هو الذي يربي الأمة على الأنفة وإباء الضيم وينفخ في أفرادها روح التمرّد على الظلم والفساد، ويدفع الأمة إلى سلوك السبيل المستقيم ﴿إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالمي أَنْفُسِهِمْ قالوا: فيمَ كُنْتُم قَالوا: كُنَّا مُسْتضعفينَ في الأرض. قالوا: ألم تكنْ أرضُ اللَّهِ واسعةً فَتُهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء: ٩٧].

ومهما تقدّمت الأيام وكرّت الليـالي فسيبقى القرآن مـلاذ هذه الأمـة تفزع إليـه في الأزمات، فيـأخذ بيـدها إلى الخيـر والتقـدم والصـلاح، ويبلّغها السعـادة والمجد والفـلاح. . بل يبقى المـلاذ الأوحـد الذي لا تجـد سواه في مـدلهمات الخـطوب. وقـد أدرك أعداؤنا هذا فمكروا مكراً كباراً وبثوا السم في الدسم.

لقد أنزل الله على عبـده ورسولـه محمد بن عبـد الله ﷺ هذا الكتـاب ليهـدي النـاس إلى الحق ويخـرجهم من الـظلمـات إلى النور، ويسلك بهم طريق الرشاد.

فكــانت فيـه الأسس الفكــريـة والاجتمــاعيـة والسيــاسيـة والاقتصـاديـة والــروحيـة والخلقيــة التي يقـوم عليهــا المجتمـع الإسلامي:



ـ ١ ـ

ففي هـذا الكتاب الكـريم العقيـدة الصحيحـة السليمـة التي حلّت لـلإنسان أعـظم مشكلة تلـح على وجدانـه متمثلة بـالسؤال الآتي: لماذا خُلقت؟

قـال الله تعـالى: ﴿ومـا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلا ليعبـدون﴾ [الـذاريات: ٥٦] ووضعت هـذه العقيـدة نـظرة متميـزة لـلإنسـان والكون والحياة.

فهذا الكون من صنـع الله ﴿إنما أمره إذا أراد شـيئـاً أن يقول لـه كن فيكـون﴾ [يس: ٨٢] ﴿الـذي خلق سبـع سمـوات طبـاقـاً ما ترى في خلق الـرحمن من تفاوت فـارجـع البصر هـل ترى من فـطـور. ثم ارجـع البصـر كـرتين ينقلب إليـك البصـر خـاسئـاً وهو حسير﴾ [الملك: ٣ ـ ٤].

وهذا الكون ليس عدواً للإنسان، وليست الطبيعـة خصماً لـه يصارعه ويغالبه.. إنما هي من خلق الله، وهي صديق، فـالأرض مـذللة للإنسـان، وكل مـا فيها مخلوق لـه ﴿هو الـذي جَعَـلَ لكمُ

الأرضَ ذلـولاً فامْشـوا في مناكبهـا وكلوا من رزقه﴾ [الملك: ١٥] ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [البقرة: ٢٩].

* وقرر القرآن أنَّ الناس مخلوقون من ذكر وأنثى، وموزعون إلى أمم متعددة لتتعارف ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائـل لتعـارفـوا إنَّ أكرمكم عنـد الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣].

والإنسان مخلوق من مخلوقات الله، أصله من تـراب ﴿واللَّهُ خلقكم من تراب﴾ [فاطر: ١١] وهو يشـارك الحيوان بـأنواعـه في كثير من صفاته وغرائزه ﴿وما مِنْ دابَّـةٍ في الأرضِ ولا طائـر يطيـر بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولكنّه مكرَّم ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الاسراء: ٧٠] وخلق في أحسن تقويم ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤].

والناس متساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣].

* والحياة الدنيا هي وحدها الطريق إلى الآخرة ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكـر أو أنثى وهو مؤمن فـأولئك يـدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يـومكم

هــذا إنـا نسينــاكم وذوقـوا عــذاب الخلد بمـا كنتم تعمـلـون﴾ [السجدة: ١٤].

* وقرر القرآن العقيدة السليمة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخر فـالله جـل جـلالـه واحـد ﴿قـل هـو الله أحـد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـواً أحد﴾ ﴿هـو الله الذي لا إلـه إلا هـو الملك القـدوس السـلام المؤمن المهيمن العــزيـز الجبار المتكبر سبحـان الله عما يشـركون هـو الله الخالق البـارىء المصـور له الأسمـاء الحسنى يسبح لـه ما في السمـوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [الحشر: ٢٣ ــ ٢٤].

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ومن يكفر بركن من أركان الإيمان فهو كافر ﴿ومن يكفر بـالله ومـلائكته وكتبـه ورسله واليـوم الآخـر فقـد ضـلَّ ضـلالاً بعيـداً﴾ [النساء: ١٣٦].

والبعث حق آت لا ريب فيــه، وهـو هين على الله ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمـع عظامـه بلى قادرين على أن نسـوي بنانـه﴾ [القيامة: ٣ ــ ٤][١].

وقد فصَّل الكتابُ القول في كـل ركن من هذه الأركـان على

(١) لمحات في علوم القرآن، ص ٢٩ ــ ٣٢.

نحـو يثير الـوجدان ويحقق الاقتنـاع واليقين .

ويفيد أن نذكـر ههنا بعض البحـوث الحديثـة التي عرضت جوانب من هذه العقيـدة مع التنبيـه إلى أن كل جهـد بشري يبقى معرّضاً للنقد والنقص، وهذه البحوث اعتمدت على القرآن. فمن هذه البحوث :

ـ خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب.

ـ مبادىء الإسلام، للمودودي .

ـ مذكرة في التوحيد، لعبد الرزاق عفيفي .

ـ الحضـارة الإسلامية، للمودودي .

ـ العقائد الإسلامية، لسيد سابق .

ـ نظام الإسلام، لمحمد المبارك .

ـ تعريف عام بدين الإسلام، لعلي الطنطاوي .

ـ العقيدة في الله، لعمر الأشقر.

ـ الإيمان، لمحمد نعيم ياسين .

ـ الخصائص العامة للإسلام، ليوسف قرضاوي .

ومن المراجـع المهمة في العقيدة ما كتبه ابن تيمية وابن القيم في هذا الموضوع، وقد جمـع كثيراً من كلامهمـا في ذلك شـارح الطحاوية .

والحق أن مـوضوع العقيـدة ووضوحهـا في أذهـان العـاملين لـلإسلام مـوضوع يحتـاج إلى عنايـة وجهد ربمـا لم يتـح للدعـاة

الـذين تقـدمـونـا بقليـل، لأنهم ــ أحسن الله جـزاءهم ــ كــانـوا مشغولين بتجميـع الناس على الإسـلام، وبمواجهـة التيار العنيف المتبني للإلحاد والعلمانية.

أمـا الآن وبعد أن تـوضحت معـالم الصـراع، وأقبـل النـاس بـأعداد هـائلة على الإسـلام فيجب على الـدعـاة أن يـولـوا هـذا الموضوع ما يستحق من الاهتمام.

إن العقيـدة هي الأســاس الــذي ننـطلق منــه في عملنــا الإسلامي، وقد ظل القرآن يعـالج جـوانب هذه العقيـدة ولا سيما ما نزل منه بمكة بأساليب مختلفة مؤثرة.

ومن الجـدير بنـا أن نعرف أبعـاد هذه العقيـدة كما يعـرضهـا القـرآن.. لا كما آلت عنـد عدد من علمـاء الكلام الـذين اتخذوا لهـذا العلم إطاراً يعتمـد على المنـطق الصـوري اليـونـاني وعلى الجدل.

إنـه لا يجوز في العمـل الإسـلامي المقبـل أن يبقى الشـاب المثقف في صف الدعوة سنوات عديـدة ثم لا تكون جـوانب هذه العقيدة واضحة كل الوضوح في ذهنه.. نعم.. لا يجوز أن تبقى هذه الجوانب غامضة متداخلة سطحية باهتة.



— ٢ —

[وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظام الروحي التي حققت للمرء أن يمدَّ شطر ذاته بغذاءمستمر، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به تبارك وتعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلَّهم يرشدون﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢][1].

إن الشيء المتميز في الدعوة الإسلامية عن الدعوات الأخرى القائمة في الساحة عنايتها بالعقيدة والجانب الروحي على نحو يقيم التوازن التام بين جوانب الحياة المختلفة بعيداً عن الخرافة والتدجيل والانحراف.

ومن البحوث القيمة في هذا الصدد رسالة «أزمة روحية» للأستاذ عصام العطار. وكتاب «الأركان الأربعة» لأبي الحسن

---

(١) لمحات في علوم القرآن، ص ٣٢.

الندوي الذي عالـج هذا الموضوع من خـلال حديثـه عن الأركان الأربعة في الإسلام، وكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم.

وهناك بحوث نافعة في كتابات ابن القيم في «إغاثة اللهفـان» و «الجواب الكافي» و «الفوائد» وغيرها.

وهناك بحوث رائعـة في كتاب «إحيـاء علوم الدين» للغـزالي لكننـا ننبه إلى الخـطر من قراءة هـذا الكتاب بـالنسبة إلى العـامة والمبتدئين، ومختصـراتـه وأهمهـا: «مختصـر منهـاج القـاصـدين» لابن قدامة و «موعظة المؤمنين» لجمال الدين القاسمي.



ـ ٣ ـ

[وفي هـذا الكتاب الكـريم أسس النـظام الأخـلاقي العـظيم الذي جاء به الإسلام، فلم يتجاهل طبيعة النفس الإنسانية، ولكنه في الوقت نفسه أخذ بهذه النفس إلى أن جعلها تحقق المثل التي كانت تتراءى لكثير من الفلاسفة والمصلحين أهدافاً بعيدة.

فقـد دعا إلى مكـارم الأخلاق، وحـذّر من مسـاوىء الأقـوال والأفعال ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربـى وينهى عن الفحشـاء والمنكر والبغي يعـظكم لعلكم تـذكـرون﴾ [سـورة النحل: ٩٠] ﴿قل تعالوا أتْـلُ ما حـرّم ربكم عليكم ألا تشركـوا به شيئـاً، وبالـوالدين إحسـاناً، ولا تقتلوا أولادكم من إمـلاق، نحن نـرزقكم وإياهم، ولا تقـربـوا الفـواحش مـا ظهـر منهـا ومـا بـطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقـربـوا مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسن حتى يبلـغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كـان ذا قربـى وبعهـد الله أوفوا ذلكم وصـاكم به لعلكم تذكرون﴾ [الأنعام: ١٥١ ــ ١٥٢].

وهذه الأخلاق التي دعا إليها القرآن أخلاق إيجابية وعملية وشاملة][1].

ولقد كان لوجود هذه الأخلاق بارزة في دنيا الناس دور في الدعوة إلى الإسلام.. ويكفينا للتدليل على ذلك دخول أقطار كبيرة في الإسلام عن هذا الطريق كأندونيسيا والسنغال وغيرهما.

ومن الرسائل والكتب التي بحثت نظام الأخلاق «الأسس الأخلاقية» للمودودي و «نظرية الإسلام الخلقية» له أيضاً و «الأخلاق في القرآن» لمحمد عبد الله دراز و «أخلاق العلماء» للآجري.

و «من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال.

و «من صفات الداعية» لمحمد بن لطفي الصباغ.



(١) لمحات في علوم القرآن، ص ٣٢ ــ ٣٣.

— ٤ —

[وفي هـذا الكتاب الكـريم أسس النـظام الاجتمـاعي الـذي يصـوغ الفرد والمجتمـع صيـاغة متكـاملة لا يجور أحـدهمـا على الآخـر. والـذي يقيم المجتمـع على أسس العــدالـة والتكــافـل الاجتمـاعي والمساواة والتـراحـم والتعاون والـذي يحدد القـواعـد العـامة في قضـايا المعـاملات من تجـارة وقـرض وبيـع ومـداينـة وما إلى ذلك من تلك القواعد التي لا تستقيم الحياة إلا بها والذي يقيم الأسرة على قواعد متينة من التـراحـم والتعاون والتكـافل وهذا يحقق لكل فرد من أفرادها السعادة الحقيقية][1].

فلقـد قرر القـرآن أن حبّ الولـد والذريـة مغروس في النفس البشرية، ولم يصادم الغرائز.. بل جعلها في خدمة المثل العليا، فـدعا إلى الـزواج وإنجاب الأولاد ونـظم العلاقـة بين الـزوجين، وحـدّدها تحـديداً واضحـاً، وفصل القـول في موضـوع الخـلاف الزوجي، والرضـاع، وتربيـة الأولاد، والطلاق، والميـراث، ودعا

---

(١) لمحات في علوم القرآن، ص ٣٣.

إلى بر الوالدين، وصلة الأرحام، ولكنّه حذر من أن تكون علاقة القرابة أوثق من الدين. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٢٣ ـ ٢٤].

فالقرابة والمال والوطن لا يجوز أن يكون أيٌّ منها مقدماً عند المؤمن على الله ورسوله والجهاد في سبيله.

والكتب التي في هذا المجال كثيرة جداً نورد بعضاً منها:

فمن البحوث الجيدة:

ـ القسم الأول من كتاب الحجاب، للمودودي.
ـ تنظيم الإسلام للمجتمع، لمحمد أبي زهرة.
ـ تفسير سورة النور، للمودودي.
ـ نظرات في الأسرة والمجتمع، لمحمد بن لطفي الصباغ.

ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام، لسيد قطب.

ـ التكافل الاجتماعي في الإسلام، لمحمد أبي زهرة.

ـ المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، لمحمد أبي زهرة أيضاً. وفي المجتمع الإسلامي له.

والتشريع الإسلامي وحاجتنا إليه لمحمد بن لطفي الصباغ.

* * *

— ٥ —

[وفي هذا الكتاب الكريم أسس النظامين: الاقتصادي والسياسي.

فالنظام الاقتصادي يحرم الاستغلال والظلم والعدوان، ويحقق الكفاية والعدالة والرفاهية والتعاون والتكافل.

ويسلك القرآن من أجل ذلك مسالك عدة عن طريق الاقناع الفكري والإثارة الوجدانية، والترغيب والترهيب، والزواجر المعنوية والمادية، والنظام السياسي الذي تقوم عليه دولة الإسلام يعتمد على الشورى والعدل والمساواة وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وهدف هذه الدولة الأعظم إقامة معالم الإسلام والعمل على نشره في الأرض وابتغاء رضى الله. قال تعالى:

﴿الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤١].

* * *

وهكذا فإنّ القرآن هو أساس الإصلاح في حياة أمتنا، وقد حوى كل هذه الأسس،وقد أثبتت الأيام والتجارب أنه الدستور الوحيد الصالح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه هي العلاج الناجع لأمراض الحياة. لا اختلاف فيه ولا تناقض. قال تعالى:

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢][1].

* * *

(١) لمحات في علوم القرآن، ص ٣٤.

السنّة

أما السُنّة فإنها المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، ولا ينكر هذا أو يجادل فيه إلا من سفه نفسه، وظلم عقله، وتجنّى على الحقيقة، وتنكر للواقع. ومن الأهمية بمكان أن نذكر ـ هنا ـ أنّ المصادر الأخرى التي تذكر من مصادر الشريعة هي مصادر فرعية، تعتمد على الكتاب والسنّة، وتدور في ساحة الاجتهاد: فالقياس يعتمد على الكتاب والسنّة، والإجماع لا بُدَّ فيه من نصّ يعتمد عليه حتى ولو لم يصل إلينا ذاك النص.

والسنّة قول الرسول ﷺ بعد النبوة وفعله وإقراره ووصفه.

وعلم الحديث علمٌ أصيل، قعّدت أمتنا قواعده، وأصّلت أصوله ولم تقتبسه عن أمة أخرى، ولا تأثرت فيه بمنطلقات أجنبية. ولقد كان هذا العلم تحقيقاً لوعد الله تبارك وتعالى في حفظ هذه الشريعة وضمان بقائها في هذا الوجود نقية محفوظة من الدخيل والشوائب.

وكان علم الحديث ـ كما يقول بعض الباحثين ـ أباً للعلوم

الإسلامية، منه انحدرت واشتقت، وإلى كتبه تعود، فالفقه والتفسير والعقيدة علوم نشأت في رحاب كتب الحديث، وكانت أبواباً منه. ثم استقلت بعد ذلك وأصبحت علوماً مستقلة بذاتها.

أما علم مصطلح الحديث فإنه هو وعلم أصول الفقه يشكلان المرتكزات الأساسية لطرائق التفكير والنقد والاستنباط عند المسلمين. ويؤسفني أن أقرر أن هذين العلمين العظيمين آل أمرهما عند المتأخرين من علماء المسلمين إلى أن يكونا مادة للاطلاع فقط، وليس لهما أيُّ أثر في حياتهم العلمية والفكرية، وبذلك فوتوا على أنفسهم الفائدة البالغة التي حققها الأجداد وعياً وفكراً وإبداعاً واستنتاجاً.

وإنني لأرجو أن ينطلق الواعون من أهل العلم في الإفادة من هذين العلمين في هذه الحقبة، وأن تنتهي إلى الأبد تلك الحالة الشاذة التي كانت سائدة في العصور المتأخرة من تعطيل للاجتهاد[١].

إن قواعد علم المصطلح تعلّم المنهجية في الحكم على الأخبار دون أن يكون تأثر بأي اعتبار آخر غير تطبيق تلك القواعد.

(١) انظر كتابي «الحديث النبوي»، ص ٦.

إنَّ علمـاء الحديث تتبعـوا أحـوال الـرواة التي تسـاعـد على عملية النقد وتمييز الخبيث من الطيب ودونوا في ذلك المدونات، وذكروا فيها أحوال الراوي وظـروفه، من ولادتـه حتى وفاتـه. قال ابن أبـي حاتم:

[وجب الفحص عن النـاقلة والبحث عن أحـوالهم، وإثبـات الـذين عرفنـاهم بشرائط العـدالة والتثبت في الـرواية ممـا يقتضيه حكم العـدالة في نقـل الحديث وروايتـه، بأن يكـونـوا أمنـاء في أنفسهم، علماء بدينهم، أهل ورع وتقوى وحفظ للحـديث واتقان وتثبت، وأن يكـونـوا أهـل تمييـز وتحصيـل لا يشـوبهم كثيـر من الغفلات، ولا تغلب عليهم الأوهام فيما قد حفظوه ووعوه. .][1].

هذا بالنسبة إلى السند، ووضعوا قواعد لنقد المتن وأحكموها حتى يتبين لهم الحـديث الصحيـح من الضعيف، وكـان مـوقفهم تحقيقاً لقول عمـرو بن قيس: (ينبغي لصاحب الحـديث أن يكون مثـل الصيرفي الـذي ينقد الـدراهم، فـإنَّ الـدراهم فيهـا الـزيف والبهرج وكذلك الحديث)[2].

قال الأستاذ المعلمي اليماني:

---

(١) مقـدمـة «الجـرح والتعـديـل» لابن أبـي حـاتم ص ٥. وانـظر كتـابـي «الحديث النبوي»، ص ٢٧١.

(٢) «الكفاية» ص ٥٦٠.

(فلا تكاد تجد حديثاً بيّن البطلان إلا وجدت في سنده واحداً أو اثنين أو جماعة قد جرحهم الأئمة، والأئمة كثيراً ما يجرحون الراوي بخبر واحد منكر جاء فضلاً عن خبرين أو أكثر، ويقولون للخبر الذي تمتنع صحته أو تبعد: «منكر» أو «باطل»)(١).

قال ابن تيمية(٢):

[والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله ﷺ، الحافظون له من الزيادة والنقصان هم من أعظم أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، بل لهم مزية على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال الصالحات كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. [المجادلة: ١١].

وعلم الإسناد والرواية ممّا خصّ الله به أمة محمد ﷺ، وجعله سلماً إلى الدراية، فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنّة، أهل الإسلام والسنّة، يفرقون فيه بين الصحيح والسقيم، والمعوّج والقويم، وغيرهم من أهل البدع والكفار، إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل.

---

(١) «الأنوار الكاشفة» ٦ ـ ٧. وانظر كتابي «الحديث النبوي» ٢٧٢.

(٢) «الفتاوى» ١/٨.

وأما هذه الأمة المرجومة، وأصحاب هذه الأمـة المعصومـة، فـإن أهل العلم منهم والـدين، هم من أمرهم على يقين، فـظهـر لهم الصدق من الميْن، كما يظهر الصبـح لـذي عينين، عصمهم الله أن يجمعـوا على خطأ في دين الله معقـول أو منقول، وأمـرهـم إذا تنـازعوا في شيء أن يـردوه إلى الله وإلى الرسـول، كمـا قـال تعـالى: ﴿يا أيهـا الذين آمنـوا أطيعوا الله وأطيعـوا الرسـول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والـرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾. [النساء: ٥٩].

فإذا اجتمـع أهل الفقـه على القول بحكم لم يكن إلا حقـاً، وإذا اجتمـع أهــل الحــديث على تصحيـح حــديث لم يكن إلا صدقاً، ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بـالجلي والخفي، ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي، والله تعالى يلهمهم الصواب في هذه القضية، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية.

وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية، فإنّ الله كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، لمـا صدقـوا في موالاة اللهورسـوله، ومعـاداة من عدل عنـه. قال تعـالى: ﴿لا تجد قـوماً يؤمنـون بالله واليـوم الآخـر يُـوَادُّنَ من حـادّ الله ورَسُولَهُ، ولـو كـانـوا آبـاءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه﴾. [المجادلة: ٢٢].

وأهـل العلم المأثـور عن الرسول، أعظم النـاس قيامـاً بهـذه الأصـول، لا تأخـذ أحدهم في الله لـومـة لائم، ولا يصـدهم عن سبيل الله العظائم، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليـه، ويتكلم في أحب الناس إليه.

. . . .

ولم يـزل أهل العلم في القـديم والحـديث، يعـظمـون نَقَلَة الحديث، حتّى قال الشـافعي رضي الله عنه: إذا رأيت رجـلاً من أهل الحديث فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبـي ﷺ.

وإنما قال الشـافعي هذا لأنهم في مقـام الصحابـة من تبليـغ حديث النبـي صلّى الله عليه وسلّم.

وقال الشافعي أيضاً: أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا].

ومكانة السنّة مكانة رفيعة عظيمة، ولها قوة تشـريعية ملزمـة، وعليها يقوم جزء ضخم من كيان الشريعة... ونستـطيـع أن نتبيّن مكانتها فيما يأتي:

١ ـ السنـة مبينة للقـرآن: فقـد كلف الـرسـول العـظيم ﷺ بمهمة تبيين ما نزل إلى الناس ﴿وأنـزلنا إليـك الذكـر لتبيّن للناس مـا نـزل إليهم﴾ [النحـل: ٤٤] وقـد قـام صلوات الله عليـه بهـذه

المهمة خير قيام، فأدّى الأمانة وبلغ الرسالة، وبين المراد من آيات الله.

٢ ـ والسنّة مفصلة لمجمل القرآن: ففي القرآن آيات تأمر بالصلاة والزكاة أمراً مجملاً. قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ [النور: ٥٦].

وتأتي السنة المطهرة فتفصِّل عدد الصلوات وأوقاتها، وعدد ركعاتها، ومبطلاتها، وتدل على شروطها وأركانها. كما تفصّل ذكر الأموال التي فيها زكاة والتي لا زكاة فيها.. وتفصل النصاب الذي تجب فيه الزكاة، ومقدارها ونسبتها...

أخرج أبو داود والطبراني والخطيب والسمعاني بأسانيدهم إلى عمران بن حصين أنه كان جالساً ومعه أصحابه. فقال رجل من القوم لعمران: يا أبا نجيد إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن.. لا تحدثونا إلا بالقرآن. فغضب عمران وقال للرجل: ادن. فدنا. فقال: أرأيت لو وُكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً والطواف بالصفا والمروة؟ أوجدتم في كل أربعين درهماً درهم؟... أتجد في كتاب الله الصوم مفسراً؟ أوجدتم هذا في القرآن؟ قال الرجل:

لا. قال: فعن من أخذتم هذا؟ أخذتموه عنا، وأخذناه عن نبي الله ﷺ ثم قال: أي قوم خذوا عنا فإنكم والله إن لا تفعلوا لتضلن[1].

٣ ــ وفي السنّة أحكام عليها جمهور المسلمين لم تأت في القرآن، كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وذلك للحديث المتفق عليه[2]. وحد شرب الخمر ورجم الزاني المحصن وميراث الجدة. قال الشوكاني: [إن ثبوت حجيّة السنّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في الإسلام][3].

٤ ــ وفي السنّة تخصيص لعموم محكم القرآن. ومن ذلك تخصيص الحديث «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[4] الآية: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾ [النساء: ١١].

---

(١) انظر: سنن أبي داود برقم ١٥٦١، ومعجم الطبراني الكبير ٢١٩/١٨ برقم ٥٤٧، والكفاية للخطيب، ص ٤٨، وأدب الإملاء والاستملاء، ص ٤، وذكرت ما جاء في رواياتهم لأن في بعضها زيادة عن بعض.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١١/٧، وصحيح مسلم ١٣٥/٤.

(٣) إرشاد الفحول، ص ٢٩.

(٤) انظر: صحيح البخاري ١٣٠/٨، وصحيح مسلم ٥٩/٥، وأبو داود ١٧٢/٣، وابن ماجه ٩١١/٢، والترمذي ١٨٣/٣، والموطأ ٥١٩/٢.

قال الخطيب البغدادي:

[فكان ظاهر هذه الآية يدل على أن كل والد يرث ولده، وكل مولود يرث والده، حتى جاءت السنة بأنّ المراد ذلك مع اتفاق الدين بين الوالدين والمولودين، وأما إذا اختلف الدينان فإنه مانع من التوارث][1].

٥ ــ والقرآن الكريم نفسه في آيات كثيرة جداً يردّ إلى السنّة ويوجب على المسلمين أن يطيعوا الرسول ويَعُدُّ طاعة الرسول طاعة لله. قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء: ٨٠]. ويقرر القرآن أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة لكل من آمن بالله واليوم الآخر: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأوجب الله في القرآن النزول على حكم النبي في كل خلاف، وأقسم الله تبارك وتعالى على نفي الإيمان عن كل من لا يحكّمه ولا يرضى بحكمه حتى يحكمه ويرضى بحكمه فقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) الكفاية، ص ٤٥. وانظر فيه أمثلة أخرى خصصت فيها السنة محكم القرآن. وانظر: كلام الشافعي في كتاب أحكام القرآن جمع البيهقي ١/٢٦. وانظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم.

وأخبرنا ــ جل ذكره ــ أن رسول الله أوتي القرآن والحكمة (التي هي السنّة) ليعلم الناس أحكام دينهم ويزكيهم فقال سبحانه: ﴿لقد منّ اللّهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤]. قال الإمام الشافعي في هذه الآية: (سمعتُ من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمةُ سُنَّةُ رسول الله.. فلم يجز أن يقال الحكمة هنا إلا سنّة رسول الله وذلك أنها مقرونة مع الكتاب، وأنَّ الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره)(١).

وقال ابن تيمية: [والله سبحانه بعث محمداً بالكتاب والسنّة، وبهما أتمَّ على أمته المنّة. قال تعالى: ﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ [البقرة: ١٥٠ ــ ١٥١]... وقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وقد قال غير واحد من العلماء، منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم: الحكمة هي السنّة، لأن الله أمر أزواج

---

(١) الرسالة، ص ٧٨، وكتاب أحكام القرآن جمع البيهقي ١/٢٨، وجامع بيان العلم ١/١٧.

نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب القرآن، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السُّنّة][1].

وهناك نصوص قرآنية أخرى عديدة تلزم المسلم بطاعة رسوله وامتثال أمره فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإنّ الله لا يحب الكافرين﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقد وردت آيات تأمر بالرجوع إلى السنّة، فقد جاء أكثر من ٢٠ آية فيها الأمر بطاعة الرسول (بلفظ الطاعة). ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾. [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم: [فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله. وأعاد الفعل إعلاماً بأنّ طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أم لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه.

ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة كما صح

(١) فتاوى ابن تيمية ١/٦.

عنه ﷺ أنه قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، وقال: «إنما الطاعة في المعروف». وقال في ولاة الأمور: «من أمركم منهم بمعصية فلا سمع له ولا طاعة». وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها: «إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها» مع أنهم إنما كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم، وظناً أن ذلك واجب عليهم ولكن لما قصروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله وحملوا عموم الأمر بالطاعة لما لم يرده الآمر ﷺ وما قد علم من دينه إرادة خلافه فقصروا في الاجتهاد، وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا؟ فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله؟

ثم أمر تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين وأخبرهم أن ذلك خير لهم في العاجل وأحسن تأويلاً في العاقبة][1]. إنَّ هذه الآيات وغيرها لتدل دلالة قاطعة على أن السنة في رتبة تشريعية ملزمة.

ـ وإذا ما رجعنا إلى الأحاديث الثابتة وجدنا طائفة ضخمة تصرّح بمكانة السنة في الشريعة وبوجوب اتباعها. وسأذكر بعضها:

---

(١) إعلام الموقعين ١/٤٨.

فمن ذلك قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله من يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري[1].

ومن ذلك حديث العرباض بن سارية الذي قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى إختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وأبو داود وابن ماجه والدارمي[2].

ومن ذلك قوله ﷺ: «إني أوتيت الكتاب وما يعدله، يوشك شبعان على أريكته أن يقول: بيني وبينكم هذا الكتاب، فما كان فيه من حلال أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه. ألا وإنه ليس

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٩/٧٥.
(٢) انظر: الترمذي ٣/٣٧٧، وأبو داود ٤/٢٨١، وابن ماجه ١/٥ ــ ٦، والدارمي ١/٤٤.

كذلك». رواه ابن حبان وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي(1).

٧ ــ ولقد كان السلف الصالح من الجيل المثالي من أصحاب رسول الله ﷺ يفقهون هذه المكانة للسنة تمام الفقه.

قال عابس بن ربيعة: رأيتُ عمر بن الخطاب يقبّل الحجر الأسود ويقول: أعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضرّ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك(2).

٨ ــ وكانت ضرورة تطبيق الشريعة وما جاء في القرآن ملزمة بالرجوع إلى السنّة كما تدل على ذلك الحادثة الآتية:

جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تُوَرَّث. فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً. ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال أبو بكر: هل معك أحدٌ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك. فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه(3).

---

(1) انظر: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان رقم ٩٧، وأبو داود ٤/٢٧٩، والترمذي ٣/٣٧٤، وابن ماجه ١/٦، والدارمي ١/١٤٤.

(2) انظر: صحيح البخاري ٢ / ١٢٥، وصحيح مسلم، ٢ برقم ١٢٧٠.

(3) انظر: أبو داود ٣/١٦٧، والترمذي ٣/١٨١، وتذكرة الحفاظ ١/٢.

٩ ــ وإذا كانت السنّة في معظمها وحياً من الله فمن الطبيعي أن تكون لها هذه المكانة السامية في الشريعة. والسنّة وحي لأن الأحاديث نوعان: نوع أوحي إلى الرسول معناه من الله، ونوع اجتهد فيه الرسول فأيده الوحي بالإقرار، ومن أجل ذلك فقد قرر العلماء أنه لا فرق بين السنّة وبين القرآن من ناحية وجوب العمل بمقتضاها بالنسبة للصحابة الذي يتلقون أقوال النبي ﷺ، بينما يختلف هذا الموضوع في حق من جاء في الأعصر المختلفة إذ أن هذه الأحاديث لم تصل إليهم كلها عن طريق متواتر يقيني الثبوت كما هو شأن القرآن.

١٠ ــ هذا وإن الحركات الهدامة المعادية للإسلام اتخذت محاربة السنّة سلاحاً للقضاء على الإسلام أو تحريفه.

وقد بدأ هذا الكيد في وقت مبكر، ففي أيام الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ قام من يدعو بهذه الدعوة فناقشهم وذكر ما دار بينه وبينهم من محاجة وحوار في كتاب «جماع العلم» من كتابه «الأم»[١].

وقد يكون لبعض الفرق المنحرفة دور في ترويج هذه الدعوة الضالّة. وتعليل هذا الكيد الحقير ميسور، إذ أن هذه الحركات

---

(١) انظر: الأم ٧/٢٥٠.

الهدامة المعادية ما كان لها أن تنال من القرآن ولا أن تثير حوله الشكوك. فلقد كان إعجازه سوراً شامخاً حال بين هؤلاء الحاقدين الموتورين وما يريدون، وكذلك فإنَّ كونه مكتوباً في حياة النبي ﷺ ومنقولاً بالتواتر في الصدور حال بينهم وبين ما يبغون من التشكيك والزيادة والنقص.

ولذلك فقد ظنت هذه الحركات الحمقاء أنها تستطيع أن تجد بغيتها في الحديث. قال ابن تيمية:

[ولما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصَّه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان منقولاً بالتواتر؛ لم يطمع أحدٌ في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به العباد، فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد، أهل الهدى والسداد، فدحروا حزب الشيطان، وفرقوا بين الحق والبهتان، وانتدبوا لحفظ السنّة ومعاني القرآن، من الزيادة في ذلك والنقصان...][1].

(١) فتاوى ابن تيمية ١/ ٧.

نعم انطلقت بعض فئات هذه الفرق تشكك في اعتبار السنّة مصدراً من مصادر الدين لشبه باطلة لا تقف على قدميها أمام الحجة الساطعة، والنقاش العلمي السليم، كادعاء صعوبة التمييز بين الموضوع والصحيح. وهذا باطل لا شك فيه. وكادعاء أن أقوال النبي صحت أم لم تصح تدبير مؤقت للمجتمع يومذاك وليست ملزمة، وكادعاء أن السنّة لا يطمأن لصحتها لأن فيها الموضوع المكذوب ولذلك يرون تركها بالكلية.

وكالقول بقبول السنّة العملية ورفض السنّة القولية.

وكالقول بعدم العمل بالسنّة كلها ولو صحت لأنها نقلت بطريق الآحاد.

وانطلقت فئات مسعورة أخرى تشكك في صدق بعض الصحابة، وتطعن بهم الطعن الفاحش، وممن استهدف من الصحابة الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه[١].

وفي العصر الحاضر نجد فئة من المغرضين والمغفلين والمخدوعين تدعو بهذه الدعوة الضالة الهدامة.

قال الأستاذ محمد أبو زهرة:

---

(١) انظر: كتاب (السنة) للسباعي وكتاب «دفاع عن أبي هريرة» لعبد المنعم صالح.

[إن الذين يثيرون الغبار حول السنّة فريقان:

* فريق ظهر مروقه من الدين مروق السهم من الرميّة، وقد ظهرت هذه الطائفة في الهند وباكستان، والتقيت بنفر منهم، فحكمت بادي الرأي عليهم بحكم لا يسرُّ أتباعهم في مصر، ذلك أن هؤلاء لا يكتفون بإنكار حجية السنة، بل يفسرون القرآن بأهوائهم، وما يعرفون كلمة عربية، بل يفسرون الترجمة الأعجمية الباطلة، ويضربون الكتاب بعضه ببعض، فينكرون حكم آيات المواريث ، وحكم آيات الصدقات ، بل ينكرون بعض الصلوات، وهكذا كان علمهم إنكاراً، وتفكيرهم ضلالاً ، وأصل هؤلاء من منبوذي الهنود، دخلوا في الإسلام ليفسدوهَ، فضلَّ سعيهم. . وساء ما يفعلون ويقولون.

وقد وجدنا أتباعاً لهذه النحلة الضالة المضلة في مصر، ولكنَّهم يهمهمون بأقوالهم في مجالسهم، ولا يعلنونها إلا لخاصتهم، ونحن لهم بالمرصاد بعون الله وتوفيقه.

* الفريق الثاني من هؤلاء لا يظهرون إنكار حجيّة السنة، ولكنّهم يكثرون من التشكيك فيها وفي الرواة، ويدّعون أنهم يريدون تنقيتها، وأولئك منهم من يلبس العمائم، ويتزيّى بزيّ الإسلام، ويتسربل بسربال علمائه. . . ويقوله: إنه تخرّج من معاهد أقيمت للدراسة الإسلامية. وهؤلاء نقول لهم: بدل أن تطعنوا بالجملة خصّصوا، وادرسوا إن كنتم مخلصين، وائتونا

بمجموعة تقيمون الدليل فيها على عدم صدق النسبة إلى النبي ﷺ، أما أن تلقوا القول على عواهنه، وتثيروا الغبار في الجوّ كله.. فإن ذلك يدل على سوء المقصد وسوء الطوية، ويثبت أنكم لا تريدون للإسلام عزاً، ولا لأحكامه تقريراً وتثبيتاً][1].

ومن الأمثلة على هذا الكيد قيام رجلٍ مسؤول، بإنكار حجية السنة، والتشكيك بها والهجوم عليها، وقامت ضجة واسعة بسبب موقفه هذا. وقد أتيح لي أن أطلع على رأيه وأن أرى البراهين التي اعتمد عليها فذهلت عندما نشرت مجلة الدعوة التي تصدر في مدينة الرياض[2] جزءاً من نصّ كلامه، ورأيت العجب العجاب. وقد هممت أن أكتب مقالة أبين فيها مغالطاته وضعف حججه بعد أن حصلت على النص الكامل لكلامه، ولكني عدلت عن ذلك لأنني أرى أن شغل الناس بالشبهات وردها غلط، وخيرٌ منه أن نقرر للناس الحق، فحياتنا أثمن من أن ننفقها في ذكر الترهات وردها. ولكني ههنا أشير إليه إشارة عابرة لصلة ذلك بموضوعنا ولأطلع الأخوة الكرام على ضعف حجج أعداء السنّة وسأورد نموذجاً من حججه المتهاوية التي تدل على فساد رأيه.

(١) من مقال له في مجلة حضارة الإسلام الدمشقية، العدد ٥، السنة ٨، ص ٢٥. وانظر: كتابنا «الحديث النبوي»، ص ٢٦ ــ ٢٧.

(٢) مجلة الدعوة، العدد ٦٧٠، بتاريخ ٣٠ شوال سنة ١٣٩٨.

فمن هذيانه أنه شكّك في نسبة الصحيحين إلى صاحبيهما وقال: (إن هذا مطبوع في مطبعة وأي واحد يستطيع أن يدس فيه أي كلام يريد أن يضعه فيه ويقول أية أقاويل يراها تؤيد مذهبه وينسبها إلى الرسول).

وهذا الكلام يسخر منه كل من له أدنى اطلاع على كتب العلم وطباعتها وتلقيها، فلقد قرر العلماء أن الكتب الستة تواترت إلى أصحابها وأن هذا التواتر بالنسبة إلى الصحيحين في القمة.

هذا وهناك شيء آخر وهو تلقي هذه الكتب عن طريق السماع المتصل إلى المؤلف ومن المؤلف إلى النبي ﷺ أو عن طريق آخر من طرق التحمل.

إن كتب ثقافتنا الإسلامية واللغوية وأصول شريعتنا نقلت إلينا بطرق معتبرة من طرق التحمل[1] الموثوقة التي وضعت لها قواعد مضبوطة، ولم يعتدَّ العلماء بالوجادة[2] للخوف من أن تكون الأحاديث المنقولة بها مدسوسة، وللخوف أيضاً من وقوع التصحيف. قال الذهبي في «الميزان»[3]: (والتصحيف يدخل الرواية من الصحف بخلاف المشافهة والسماع) وقد اتفق جمهور

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا «الحديث النبوي»، ص ١٦٦ ـ ١٨٣.
(٢) تطلق على أخذ العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة.
(٣) الميزان ٣/٢٦٦.

العلماء على أنها (أي الوجادة) من أدنى مراتب التحمل. . بل إنَّ بعضهم لا يراها من طرق التحمل أصلاً، وطعن بعضهم في أي راوٍ يروي عن طريق الوجادة. وللإمام مسلم كلام في بيان آفات الوجادة ذكرها في كتابه «التمييز» وكذلك فإنَّ هناك أصولاً في التحقيق. . وإن كتب السنة المعروفة طبعت عن عشرات النسخ المخطوطة الموثوقة، وقد حظي صحيحا البخاري ومسلم بالكثير من العناية في التوثيق والتدقيق.

وأودُّ أن أنقل هنا كلام عالم من علماء الأدب العربي وهو الدكتور شوقي ضيف الذي يقول:

[ومن يرجع إلى كتب الحديث تروعه الدقة الشديدة في روايته والحذر البالغ في الأخذ عن رواته. وكأنهم على مر العصور يشبهون مدينة يتعارف أهلها جميعاً. وأي أهل؟ إنهم مئات. . بل آلاف. . وكل محدث أو حافظ كبير يعرفهم فرداً فرداً ويحفظ أسماءهم وأحاديثهم حفظاً متقناً يصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن إسحاق بن راهويه المحدث الكبير المتوفى سنة ٢٣٨هـ من أنه كان يحفظ آلاف الأحاديث. قال أبو داود الخفاف تليمذه: أملى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه ثم قرأها علينا، فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً][١].

---

(١) البحث الأدبي لشوقي ضيف، ص ١٥٥.

وقصَّ الدكتور شوقي ضيف[1] ـ وهو غير متهم بالتعصب للحديث وعلومه ـ قصَّة تحقيق اليونيني[2] لصحيح البخاري فقال: إنه اتفق مع ابن مالك النحوي [أن يخرج صحيح البخاري تحت سمعه وأمام بصره، حتى يكفل لألفاظه كل ما يمكن من دقة، ولحركاتها اللغوية كل ما يمكن من صحة. ولم يكتف اليونيني في إخراجه بنسخة واحدة وثيقة من نسخ صحيح البخاري بل مضى يجمع أوثق النسخ في العالم العربي، واختار أصلاً لتحقيقه نسخة كانت موقوفة بمدرسة (أقبغا آص) بالقاهرة وقابلها على أصل مسموع للحافظ أبي ذر الهروي. وأصل ثان مسموع للحافظ أبي محمد الأصيلي. وأصل ثالث مسموع للحافظ أبي القاسم بن عساكر الدمشقي. وأصل رابع مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة السمعاني وغيره من كبار الحفاظ.

ونهض بهذا الصنيع في واحد وسبعين مجلساً، كان بجواره فيها ابن مالك للمراجعة والتصحيح، وأمامه جماعة من الفضلاء

---

(١) البحث الأدبي لشوقي ضيف، ص ١٨٦.

(٢) وهو علي بن محمد بن أحمد شرف الدين أبو الحسين، ونسبته إلى يونين بلدة قرب بعلبك. توفي سنة ٧٠١. ترجم له الذهبي وذكره أول ما ذكر من شيوخه في «تذكرة الحفاظ» ٤/١٥٠٠. وانظر: «الدرر الكامنة» ٣/١٧١ و«البداية والنهاية» ١٤/٢٠.

يسمعون منه، وينظرون في نسخ معتمدة من الكتاب.

وبذلك كان إخراج اليونيني له يعدّ أصح إخراج، كما كان أداؤه له يعد أدق أداء، مما جعل فروع نسخته تنتشر في العالم الإسلامي.

وقد طبعت في العصر الحديث وذاعت نسخة فرعية منها عالية النسبة وهي بخط ابن مالك].

وقد طبع طبعات متعددة، وأجودها طبعة السلطان عبد الحميد التي حشد لها عدداً من العلماء والمصححين، فخرجت تحفة في عالم التحقيق والطباعة.

ويبدو أن تاريخ القول بالاكتفاء بالقرآن تاريخ أسود. فقد ذكر الأستاذ السيد محمد رشيد رضا أنَّ من أشهر الذين بحثوا في هذا الموضوع رجلًا يقال له: ميرزا باقر، وقد كان تنصّر، وصار داعية لمذهب البروتستانت، ثم عني بدراسة سائر مذاهب النصرانية ومذاهب اليهود، ثم عاد إلى الإسلام باجتهاد جديد ودعا إليه في إنكلترا.

وقد نشر محمد توفيق صدقي المتوفى سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) وهو طبيب مصري مقالين في مجلة المنار في العددين ٧ و١٣ من السنة التاسعة، ينحو فيهما هذا النحو ويدعو إلى هذه الدعوة الباطلة، وقد ردّ عليه كل من الأساتذة الشيخ طه البشري

والسيد محمد رشيد رضا والدكتور مصطفى السباعي[1].

هـذا وقد كتب السيـوطي رسالـة في هذا المـوضوع عنـوانها «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة» وهي مطبوعة.

واستطاع المفكر المهتـدي محمد أسـد النمساوي أن يكشف خبيئة هؤلاء الهدامين فقال:

[ولكي يستطيـع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصـورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذٍ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكيرالسطحي، أي حسب ميول كل واحد منهم، وحسب طريقة تفكيره هو.

ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعملي، ونـظام شخصي واجتمـاعي تنتهي بهـذه الـطريقـة إلى التهافت والاندثار][2].

ولعلّ من المفيد أن نورد رأي ابن حزم والشـاطبـي في هؤلاء الذين يقولون بذلك. قال ابن حزم:

---

(١) انظر رد البشري في ص ٦٦٩ من العدد التاسـع من السنـة التاسعـة من المنار ورد رشيد رضا، ص ٥٢٤ من العدد ٧، السنـة ٩ وص ٩٢٥ من العدد ١٢، السنة ٩، ورد السباعي في كتابـه «السنة» من ١٦٥ ــ ١٧٩ الطبعة الأولى.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٩٥.

[ولو أن امرأً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر، لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حدَّ للأكثر في ذلك. وقائل هذا كافرٌ مشرك حلال الدم والمال][1].

وقال الشاطبي:

[والرابع أنّ الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم، خارجين عن السنة، إذ عوّلوا على ما بنيت عليه من أن الكتاب فيه بيان كل شيء، فاطّرحوا أحكام السنة، فأدّاهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله].

ويقرر الأستاذ محمد أسد أن ترك السنّة ترك للإسلام فيقول:

[إن العمل بسنّة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه، وإن ترك السنّة هو انحلال الإسلام.. لقد كانت السنّة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام، وإنك إذا أزلت هيكل بناءٍ ما أفيدهشك بعدئذ أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟][2].

ولكن عظمة الإسلام التي حطمت كل العقبات، وصمدت

---

(١) الإحكام ٢/٨٠.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٨٥.

أمـام كل العـاديات ستصـون برعـاية الله وعنـايته هـذا الإسـلام، وسيبقى على وجـه الدهـر منـارة خـالـدة، تبـدد ظلمـات الجهـل والانحراف والضلال: ﴿يـريدون ليـطفئوا نـور الله بأفـواههم والله متمٌّ نـوره ولـو كـره الكـافـرون﴾ [الصف: ٨] ﴿والله غـالب على أمـره﴾ [يـوسف: ٢١]. نعم ستبـوء محـاولات هؤلاء الأعـداء من زنادقة وكفرة وفسقة بالإخفاق لأن الله الذي تولى حفظ هـذا الدين أنشأ علماء يكشفـون كيدهم ومخـططاتهم بأن هـداهم إلى وضـع قواعد علم المصطلـح والرجال والجرح والتعديل.

قال الشيـخ طاهر الجزائري:

[وقـد روي أن قـومـاً من الفـرس واليهـود وغيـرهم لمـا رأوا الإسـلام قـد ظهـر وعمَّ، ودوّخ وأذل جميـع الأمم، ورأوا أنـه لا سبيل إلى مناصبته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة فأظهروا الإسلام من غير رغبة، وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف، فلما حمد الناس طريقتهم ولدوا الأحاديث والمقالات..][1].

وقال ابن الجوزي:

[ولما لم يمكن أحداً أن يدخل في القرآن شيئاً ليس منه أخذ أقـوام يزيـدون في حديث رسـول الله وينقصون، ويضعـون عليـه ما لم يقل فأنشأ الله عز وجل علماء يذبون عن النقل، ويـوضحون

---

(١) توجيه النظر، ص ٣٣٨.

الصحيح، ويفضحون القبيح، وما يخلي الله عز وجل منهم عصراً من العصور][1].

فللّه الحمد والمنة ﴿إنّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [الأنفال: ٣٦].



(١) الموضوعات ١/٣١.

واقع السنّة اليوم

هناك جفوة أليمة بين هدي النبيّ ﷺ وبين حياة المسلمين العلمية والفكرية والاجتماعية. وإنها لكارثة أن لا يشعر الواعون من المسلمين ـ وهم الآن يحاولون أن ينهضوا بأبناء ملتهم من واقع مرير ـ بضرورة قيام طائفة من المسلمين في كل بلد لمتابعة تلك الجهود التي بدأها الأسلاف في مجال السنة، وأنفقوا في سبيلها زهرات حياتهم.

لماذا لا نجد في ميدان علم الحديث العدد الوافر الذي يتمّم جهود البخاري وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن حجر؟

لقد أصبح الحديث النبوي اليوم مع الأسف مهجوراً، ولا يتصدى له من يدرسه من الناس إلا للبركة والوعظ إلا من رحم ربك، وقليل ما هم . . .

وقد شاع في الأوساط العلمية التي كانت في مطلع هذا العصر من أن باب الاجتهاد مغلق، ومن أنه ليس للمرء إلا أن

يـأخـذ مـا انتهى إليـه الفقهـاء، وليس لـه أن يفكـر في الاجتهـاد ومناقشة الفقهـاء، فللاجتهاد شـروط ذكروهـا يتعذّر اجتمـاعها في رجل، والفقهاء موثوقون، فما ورد في كتبهم واجب الاتباع، وهذا كلام فيه نظر كبير.

إنّ حاجات العصر العديـدة، والأحوال الاجتمـاعية الجـديدة التي تنتـظر حكماً إسـلامياً لتلـح على عنـاصـر القيـادة الفكـريـة للمسلمين أن يعملوا جاهدين على استئناف الاجتهاد.

إن احتيـاج المسلمين إلى الاجتهاد ضـرورة لا ينكرهـا أحد، ولا سيمـا في الأمور التي جـدّت مؤخـراً، والتي لا يعـرف النـاس حكم الله فيها. وهذا يستـدعي أن تجدد صلة المسلمين بـالسنّة، لأنها والقرآن المصدران الأساسيان للشريعة.

وقد آن الأوان لقيام مجمـع إسلامي يضم العلماء والمتفوقين الأتقيـاء الـورعين في مختلف أنحـاء العـالم الإسـلامي. أقـول: العلمـاء المتفـوقين لا أصحـاب المنـاصب الـرسميـة في مختلف البلاد، فكم من جاهل حلّ في منصب الإفتاء والقضاء لمسـايرتـه الحكـام. هـذا المجمـع مـدعـو ليقـول كلمـة الفصـــل في هــذه الحاجات والأحوال، وليقضي قضاء مبرماً على فكـرة إغلاق بـاب الاجتهاد، وحينئذ ستشتـدُّ الحاجـة إلى دراسة السنّـة والتخصص فيها.

ومن المؤسف أن نقرر أنّ السنة المطهرة أضحت للبركة منذ زمن طويل حتى صار «الجامع الصحيح» للبخاري يُقرأ على الناس في المحافل العامة في القاهرة في شهر رمضان أيام المماليك للبركة وابتغاء الثواب ورفع البلاء، ويستسقى بقراءته المطر، وكانت تقام احتفالات كبيرة عند ختام قراءته[1]. وقد نقل القسطلاني شارح البخاري في مقدمة «شرحه» والسيوطي في «التدريب» عن أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة أنه قال: قال لي من لقيت من العارفين عمّن لقيه من السادة المقرّ لهم بالفضل: (إن صحيح البخاري ما قرىء في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب فغرقت)[1].

وذكر ابن كثير في أثناء حديثه عن فتح عَكّا سنة ٦٩٠هـ:

(فأبرزت المناجيق.. وخرجت العامة والمتطوعة.. فتوافت الجيوش هنالك.. واجتمع الناس بالجوامع لقراءة «صحيح البخاري» فقرأه الشيخ شرف الدين الفزاري فحضر القضاة والفضلاء والأعيان)[1].

وذكر أيضاً:

(وفي شهر رجب قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام فانزعج الناس لذلك، واشتدّ خوفهم جداً، وقنت الخطيب في الصلوات وقرىء البخاري)[1].

---

(١) الحديث النبوي، ص ١٣.

وفي الصعيد كان الناس إذا مرض مريض لهم عمدوا إلى «صحيح البخاري» يقرؤونه يرجون بذلك أن يَمُنَّ الله بالشفاء على صاحبهم، وليس هذا خاصاً بالصعيد ومصر.. بل عمّ كثيراً من الأقطار الإسلامية.. وذكر الشيخ جمال الدين القاسمي أن العمل جرى على ذلك في دمشق وغيرها إذا ألمت بالبلاد نازلة مهمة فإنهم يوزعون أجزاء الصحيح على العلماء وعند الختم يغدون إلى الجامع الأموي أمام المقام اليحيوي.

* * *

وهكذا فقد تحول الحديث ـ وا أسفاه ـ في أصقاع مختلفة من العالم الإسلامي إلى تراتيل، تلتمس في قراءتها البركة، ويرجى بها النصر على الأعداء، ويبتغى بها دفع البلاء، وإلى شواهد للوعظ، تحشد في كلمات الوعظ، وانحرفت نظرة المسلمين إلى حديث رسول الله ﷺ فلم يعودوا ينظرون إليه على أنّه أوامر للتنفيذ ينبغي عليهم أن يتأكدوا أولاً من نسبتها إلى الرسول ﷺ ثم عليهم أن يستكملوا وسائل فهمها وإدراك مغازيها حتّى يتسنى لهم التطبيق والتنفيذ.

لأن كلامه ﷺ تشريع، والمسلمون ملزمون بطاعته.

* * *

نظرة حركية

لا بُدّ من أن نقف أمام هذه المعلومات التي ذكرناها وقفة حركية، وتتلخص هذه الوقفة بما يأتي:

يجب أن يكون الولاءُ في عملنا الإسلامي للكتاب والسنة. وهذا أمر لا بُد من أن ينصّ عليه ويوضح تمام التوضيح في مراحل عملنا الإسلامي بكل إصرار ودقة وحزم.

ذلك لأنّ العمل الإسلامي يقتضي لوناً من التنظيم، والتنظيم يستتبع توزيعاً للمسؤولية، وتقسيمات إدارية، ويطلب من الإخوة في أثناء العمل الطاعة والتعاون على ما يحقق الخير والاستقامة على طريق الله. وربما أدخلت هذه الاعتبارات شيئاً من الوهم واللبس والتداخل فيما يتعلق بموضوع الولاء.

إن المهمة التي تنتظر الدعاة إلى الله في عصرنا هذا هي بيانُ مبادىء الإسلام وشرحها بلغة العصر، والدعوة إليها بالحسنى، وجذب الناس إليها ببيان محاسن الإسلام، وتحذيرهم من دعوات الكفر والضلال التي أخذت تتسرب بين صفوفهم، ودعوةُ الناس

حكّاماً ومحكومين إلى أن يعودوا إلى هذا الدين، لتعود لهم عزتهم ومكانتهم.

وهذا يقتضي أن يُربَّى الدعاة ـ الذين يتصدون لهذه المهمة العظمى ـ على الولاء للكتاب والسنّة. وأن يقتنعوا بأن ما يكون من مؤسسات للدعوة إنما هي وسائل لتحقيق هذه الفكرة.. فلا يجوز أن يكون الولاء لهذه المؤسسات، ولا للرجال القائمين عليها.. بل يجب أن يكون للإسلام العظيم المتمثل بمصدريه: الكتاب والسنّة.

إن التنظيم والتعاون والانضباط والطاعة بالمعروف.. أمور تطلب في كل جماعة، لكن لا بدّ أن يربى شباب الدعوة على القيم الإسلامية.. ومن أعظم هذه القيم أن الولاء لله ولكتابه وسنة نبيّه. لا للرجال مهما كان شأن هؤلاء الرجال. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة»[1].

وعوامل الإغراء والترهيب كثيرة جداً، والنفس البشرية ضعيفة إلّا من أيده الله وعصمه، فالموقف السليم أن نتعاون على البر والتقوى وعلى القيام بالحق وأن نؤيد القائم به لا لذاته.. بل لأنه ملتزم بالحق.

---

(١) انظر كتابي: «أقوال مأثورة»، ص ٣٣٤.

ولقد رأينا في واقعنا وقرأنا في صفحات التاريخ حوادث انحرف فيها الولاء انحرافاً يكاد يخرج من الملّة.

حدثني أخ فاضل أنه التقى واحداً من أبناء حيه ارتضى لنفسه أن يكون مريداً عند شيخ صوفي فقال لصاحبه وهو يعبر له عن حبه لشيخه وتفانيه في طاعته والولاء له: (والله لو أمرني شيخي بالكفر لكفرت).

أجل.. إلى هذا المستوى المنحط بلغ الانحراف في الولاء.

* إنَّ علينا أن نبيّن للدعاة إلى الله أن التنظيم والترتيبات الإدارية وسيلة وأداة يؤخذ بها لما يرجى من تحقيق الخدمة للإسلام وتأييده وإقامة دولته في الأرض، وأن نفرق لهم بين الوسيلة والغاية وأن نبيّن بكل صراحة ووضوح أنه لا يجوز أن تتحول الوسائل إلى غايات.

فالمال ــ مثلاً ــ وسيلة للعيش الكريم.. فإذا تحول المال إلى غاية كان الشقاء في تحصيله ولم يستمتع صاحبه بما يمكن أن يحققه المال.

والنحو وسيلة لضبط اللسان والقلم، فإذا تحول النحو إلى غاية، كما نرى عند عدد من المتأخرين، تعطلت مهمته في التقويم، ترى بعض هؤلاء الذين جعلوا النحو غاية يحفظون

المتون المؤلفة في النحو والشروح والحواشي، ولا يضبط الواحد منهم لسانه ولا قلمه في كلمة يلقيها، أو صفحة يكتبها.

والفراش وسيلة للراحة والنوم، فإذا صنع الإنسان فراشاً وكان همه المحافظة عليه وإدخال التحسينات عليه ليلًا ونهاراً، وإذا جاء ميعاد النوم افترش صاحبه الأرض كيلا يصيب هذا الفراش بما يذهب جماله، كان ذلك سخفاً وانحرافاً.

أجل. . إن تحوُّل الوسيلة إلى غاية انحراف كبير. . أقول هذا وفي ذهني تصورات لأحوال نفر من الناس تحوّل التنظيم عندهم إلى غاية. . فعلى الرغم من أنهم أصحاب فكر وثقافة وفهم ودراية لم يستطيعوا أن ينقدوا بعض التصرفات الخاطئة التي قام بها زملاؤهم في العمل الإسلامي؛ ذلك لأن هذا المعنى المهمّ لم يكن واضحاً في أذهانهم. . إنهم لا يجدون الجرأة على مخالفة التنظيم ولو انحرف عن القصد، لما وقر في أذهانهم من الغلط في معنى الولاء. ولا يتبينون هذا الانحراف أبداً.

إنّ الكارثة الكبرى في العمل الإسلامي أن تتحول تنظيماتنا إلى غايات، يُقدَّمُ لها الولاء، وتضحي أحزاباً توجه إليها ضروب التبعية والاحترام دون وعي ولا بصيرة، وأن يفكر الشباب بغير العقلية الإسلامية الرشيدة حتى يغدو الانحراف شيئاً مألوفاً مستحسناً. .

إنّ الشيطان كثيراً ما يلبس الأمر على الشباب الأبرياء الصادقين ويجعل بعضهم يقبل الانحراف للحفاظ على بعض المعاني الإسلامية السليمة.. إن هذا مرفوض من وجهة النظر الإسلامية، لأنّ الإسلام حدّد الغاية وحدّد الوسيلة، وليس يجوز عندنا قبول المبدأ الميكافيلي الهدام «الغاية تبرر الواسطة».

وفي بعض الأحيان يوضع الفرد في دوامة من النقاش والمناظرات والتأويلات والجدل وسرد أقوال العلماء الشاذة في مسألة من المسائل، حتّى تَتْبَهِم عليه المعالم ولا يعود يدري من أمره شيئاً.. وأذكر أننا كنا في مجلس فطرحت قضية علمية أخطأ فيها أحد الدعاة في مؤتمر من المؤتمرات، فقال قولاً يخالف ما نصّ عليه القرآن والسنّةُ وفهمُ جمهور أهل العلم، فلما أنكر عليه بعض الحاضرين قوله قام شخص يرتبط بهذا القائل برابطة تنظيمية قام يلتمس له العذر قائلاً: (إنّ السادة الحنابلة لهم قول قريب من قول الأستاذ...) وسكت... فعقب عليه أحد الفضلاء: وهل الحنابلة يوافقون القائل على كل ما قال...

لماذا هذا التسويغ والتأويل؟ لماذا لا نقول الحق؟

لماذا لا يكون الحق عندنا أكبر من الأشخاص والتنظيمات؟

هذا ولا ينقص من قدر الإنسان أن يقع في الغلط؛ لأن ذلك شأن الإنسان.

بل إن الغلط والخطأ لا يقع فيه إلا العاملون المتحركون. . أمّا الجامدون والأموات الذين لا يقدمون أي عمل فهؤلاء لا تقع منهم أغلاط أبداً.

إنّ الإلحاح على موضوع الولاء للتنظيم بعيداً عن ذكر الكتاب والسنة يُبلّدُ في الأخ السامع الإحساس بالغلط، ويُصم أذنيه عن سماع الحق، ويعمي عينيه عن رؤية الخطأ ويشلُّ تفكيره. . فهو لا يسمع إلا نغماً واحداً، ولا يرى إلا بعين واحدة، ولا ينظر إلا صفحة واحدة، ولا يفكر إلا في مسار واحد. . إنه ليس على استعداد لقبول أية كلمة مهما كانت هذه الكلمة مهذبة وموضوعية ما دامت تتصل بشيء يفهم منه نقد الجماعة التي يعمل فيها.

لماذا؟ إنَّ علينا أن نفرح بالنقد البنّاء الهادف الموضوعي. . إنه يهدي إلينا عيوبنا. . إنه يخطو بنا خطوة إلى الأمام.

إنّ المسلم للمسلم كالمرآة يبصره بعيبه، وإنه بالنسبة لأخيه كاليدين تغسل إحداهما الأخرى. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكفُّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»[1].

إن رفض الداعية النقد البناء خوف وإحساس بالضعف، لأنّ

---

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم ٦٦٥٦.

القوي الواثق بنفسه لا يخاف من النقد، لأنه يقف على أرض من الصخر.

وأنا أعترف أن هناك قوماً هدامين مخربين يعملون ليلاً ونهاراً على الكيد للإسلام وأهله ودعاته.. وهم يتقنون التشويش والتشكيك.. فمثل هؤلاء لا نعنيهم بالطبع... وينبغي أن تكون لدينا القدرة على التفريق بين الصادقين والهدامين.

إن هؤلاء الهدامين ينبغي أن يعاملوا بالإعراض والاهمال، وكشف أمرهم.. لكن وجود هؤلاء لا يجوز أن يحملنا على التعصُّب لما نحن فيه.

إنّ تغشية العيون وإغماضها عن العيوب، وجعل الأصابع في الآذان وسدها عن سماع النقد والإصرار على السير في ذيل الآخرين دون وعي ولا تبصر يُسهّل عملية تسخير الشباب الراغبين في الخير العاملين لرفعة الإسلام للسير في طريق آخر معاكس، ويفسح المجال للمستغلين أصحاب القصد السيء لقيادة أولئك الشباب إلى خدمة مقاصد معادية للإسلام.

لماذا لا أتبيّن معالم الطريق الذي نسلكه؟ لماذا لا أنبه أخي الذي يقودني إلى جهة معينة أننا أخطأنا الطريق إذا كنا قد أخطأنا حقاً؟ لماذا لا أقول له: إن المنعطف الذي بدأنا نمشي فيه يتجه وجهة أخرى؟

إنّ كـل الحركـات التي أصيبت بـدجـالين مستغلين يتـولـون قيـادتها لم تـواجه أتبـاعها من النـاس الأبريـاء الصادقين البسـطاء بتعمدها الانحـراف عن مبادئها، ولكن أولئك الـدجالين يحكمـون أمورهم بالتكتم والعمل من خلف ستار وبـإطلاق شعـارات بـرّاقـة وعناوين مقنعة، والظهور أمام الأتباع بمظهر المتحمسين الغُيُر.

إنّ المسلم يكون طائعاً بالمعروف، وليس في الإسلام طـاعة عمياء، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

عن عبد الله بن عمرو عن النبـي ﷺ قال:

«على المرء المسلم السمـع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمـع ولا طاعة»(١) متفق عليه.

والمسلم لا يكون مخادعاً، ولكن وعيه يأبـى عليه أن يكـون فريسة للمخادعين لأن الإسلام ربّاه على الفهم والتبصر والحذر والوعي.

وفي الناس أفراد يستطيعون ببيـانهم ومقدرتهم أن يـأتوا بـأدلة تسـوّغ تصـرفـاتهم، وتـوجـد لهم المخـارج مهمـا كـانت تلك التصرفات. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً»(٢).

---

(١) انظر: فتح الباري ١٣/١٢١ ـ ١٢٢، ومسلم بـرقم ١٨٣٩، وأبو داود ٢٦٢٦ وصحيح الترمذي ١٣٩٦.

(٢) انـظر: البخاري ٧/١٨، ومسلم بـرقم ٨٦٩، وأحمد ٢/١٦، ومـالك ٢/٩٨٢، وصحيح الترمذي ١٦٥١، وأبو داود ٤/٤١٤.

فقد يأتي أحدهم بمثل يضربه ويشـرحه ويناقشه من النـاحية الشـرعية ويستنتـج أن حكم الشـرع فيه الجـواز، ثم يـطبق عليـه القضية المطروحة، وهي لا تنطبق عليـه، فيكون بـذلك قـد سوّغ فعله أمام الآخرين، ويقنـع كثيراً من الناس بصحة تصرفه شرعاً.

وهنـاك أمثلة كثيـرة لـو جمعت لكـانت رسـالـة كبيـرة ممتعـة وفـاضحـة بـآن، وهي من وسـوسـة الشيـطان ومكـره، وقـد أورد ابن الجـوزي في «تلبيس إبليس» شيئاً قـريباً من ذلـك. وأضـرب مثلًا واحداً:

قـامت في الخمسينيات من القـرن الميلادي الحـالي في بلد من بـلاد المسلمين انتخابـات اصطرع فيهـا مرشحـان فقط، كان أحدهما يمثّل الاتجاه الإسـلامي، والآخر يمثـل الاتجاه المعـادي لـلإسلام، فـانحاز رجـلٌ من الذين يعملون تحت عنـوان إسلامي للمـرشـح الذي يمثـل الاتجـاه المعـادي، وطلب من أتبـاعـه أن يؤيدوه. وعندما عوتب بعضهم في تصرف أستاذه هـذا كان جـوابه كما يأتي:

إن الشيـخ عَـرَفَ أن ذاك المرشـح سينجـح حتمـاً، ولـو أنّـه تخلّى عنه كما فعل الإسلاميون كلهم ذلك لكان في نجاحه هزيمة لـلإسلام وفي ذلـك خسارة كبـرى. أمـا الآن فـإن هـذا المعنى الضارّ استبعد ولن يكون وارداً.

ولا تعجبـوا يا سـادتي إن قلت لكم: إن نفراً من النـاس كان

يقبل هذا التعليل ويصدقه. وأحسب أن الرجل كان يتوقع وجود فريق من أتباعه لا يقبلون هذا القول ولا يقتنعون به، ولكنه لا يبالي بهم ما دام اعتراضهم سيبقى في أنفسهم وفي حدود موقف عدم الرضى لا يجاوزه إلى مراجعة وضعه في التنظيم كله.

إنّ الذي يضمن لنا البعد عن الوقوع في هذا الانحراف المؤلم أن نغرس في نفوس الذين ندعوهم إلى الله أنّ الولاء ينبغي أن يكون للكتاب والسنّة، وأن العمل في التنظيم والانقياد لمسؤوليه يجب أن يكون مقيداً بحدود الكتاب والسنّة. إننا نريد أن تقوم جماعات تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولا نريد إحداث فرقة جديدة.. إننا نريد أن ندعو إلى الإسلام الذي أنزله الله ونحن معرّضون للخطأ.. فلماذا نحمل الناس على اتباع أخطائنا؟ لماذا لا نربطهم بالمصدر الإلهي الذي يصونهم ارتباطهم به عن قبول الخطأ إن عاجلاً وإن آجلاً؟

هناك جماعة قامت تدعو إلى الإسلام، وألف زعيمها كتباً تعرض الإسلام من خلال فهمه واجتهاده، وقد أصاب في بعض ما كتب وأخطأ في بعض.

وانكبّ اتباعه على دراسة هذه الكتب وحدها، ولم يتزودوا بزاد آخر، والتفوا حولها والتزموا بما جاء فيها خطأ كان

أو صواباً. فعلى تقدم الأيام ستصبح هذه الجماعة فرقة جديدة من فرق المسلمين. وهذه مصيبة. وقبل ذلك يتحول العاملون فيها إلى ناس حزبيين. ومن أخطر الأمور التي تنتاب الأمة سيطرة الروح الحزبية على قادتها ومفكريها، هذه الروح التي تظلم المواهب والإمكانات.. هذه الروح التي تجعل المتصفين بها جاهليين يعملون بهذه الكلمة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فهم يسوّغون تصرفات من يكون معهم ولو كانت مخالفة للشرع، ويؤيدون آراءه ولو كانت مصادمة للنصوص ويسلكون في ذلك مسلك التأويل، ويسكتون عن قول كلمة الحق إذا قرر قادة الحركة موقفاً يخالف الحق. ويتحولون إلى أتباع يعطلون عقولهم ويتحركون حركة القطيع.

إن الروح الحزبية ستوظف هؤلاء الشباب الطيبين لنصرة الرأي المنحرف إذا قال به زعماء الجماعة.. وربما كان هذا الرأي المنحرف ضلالاً مبيناً، وربما كان خيانة للدين وللمسلمين.

* * *

* إن من أعظم الفوائد الحركية لالتزام الكتاب والسنة أن دراسة السنة وعلومها تربط الفرد برسول الله ﷺ وتوجد فيه الوعي فلا يقبل من تأثر عقله بطريقة المحدثين أن تلقى عليه الأمور دون دليل.

وتعلمه التثبت فلا يقبل أن يسمع خبراً دون أن يعلم مصدره. وتربي فيه الوعي والرزانة، فلا يحدث بكل ما سمع؛ لأنه ﷺ يقول: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

* * *

* إنّ الولاء للكتاب والسنّة يجعلنا أقدر على التفريق بين أمرين يختلط مفهوماهما عند كثير من الناس وهما:

* النصوص الدينية الملزمة.
* والآراء الفقهية والاجتهادات الإسلامية.

إن النصوص الدينية الملزمة محصورة في كتاب الله وما صحّ من حديث رسول الله ﷺ. وأما الآراء فهي آراء رجال يخطئون ويصيبون، ومن الغلط أن تعطى صفة القدسية التي تعطى للنصوص الدينية.

ذلك لأنه ما من مسألة فرعية إلا اختلف فيها أهل العلم، والبحث في أقوال العلماء لتسويغ انحرافات الناس وأخطائهم منهج غير سوي.

إن اعتقادنا أن النصوص الدينية وحي من الله، وهو سبحانه عالم بما سيكون في حياة الناس.

فتعطيل النص الواضح جرياً وراء قول لبعض العلماء غلط ولا ينجي صاحبه من المسؤولية، لأنّ العالم المخطىء مأجور، أما

من عرف خطأ هذا الرأي واتبعه لأنه قول لعالم فهو مخطىء دون شك. إذ كيف يتبع الخطأ؟

* * *

إنّ الإلحاح على فكرة الولاء للكتاب والسنّة له أثر تربوي كبير، ذلك أن إصرارنا على هذه الفكرة ينقل الشباب الذين ندعوهم إليها ينقلهم إلى مرحلة التطبيق والعمل كلما وقفوا على فهم آية من كتاب الله أو حديث صحّ عن رسول الله.

ولا مجال للاجتهاد في معرض النصّ.

ولا قول لأحد أمام قول الله تعالى أو قول رسوله ﷺ.

جاء في كتاب «مناقب الشافعي»[1] للبيهقي أن رجلاً سأل الشافعي بمصر عن مسألة فأفتاه وقال: قال النبي ﷺ كذا. فقال الرجل: أتقول بهذا؟ فقال الشافعي: أرأيت في وسطي زناراً؟ أتراني خرجت من الكنيسة؟ أقول: قال النبي ﷺ وتقول لي: أتقول بهذا؟ أروي عن رسول الله ﷺ ولا أقول به؟

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي وسأله رجل عن مسألة فقال: روي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبد الله، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفرّ لونه

---

(١) مناقب الشافعي ١/٤٧٤.

وقال: ويحك، أيُّ أرض تُقلُّني وأي سماء تظلني. إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً فلم أقل به؟ نعم على الرأس والعينين. على الرأس والعينين[1].

* * *

* وهذا الولاء للكتاب والسنة والإصرار عليه في مناهجنا التربوية وأحاديثنا وخطبنا يكون لشبابنا حافزاً على التزود من هذين المصدرين.

لأن ذلك يضعنا أمام توصية هؤلاء الشباب بقراءة جزء من كتاب الله كل يوم، وألا تنقطع صلتهم بهذا الكتاب الكريم. وأنّ عليهم أن يتدبروه ويعوه، ونوصيهم بالرجوع إلى تفسير مختصر وآخر مطول يرجعون إلى الثاني عند الحاجة.

* وكذلك فإن هذا الولاء يوجب علينا أن نضع في مناهج تكويننا لشبابنا دراسة للسنّة نصوصاً ومصطلحاً، وذلك أمر مهم في تكوين العقلية الإسلامية التي يصبح المرء الذي يملكها قادراً على معالجة أي أمر من الأمور بالطريقة الإسلامية ويكون مؤهلاً للوصول فيها إلى رأي قريب من الصواب. ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الأفراد الذين يتولون القيادة والتوجيه لا بدّ من أن يكونوا قد تعرفوا على الكتب الستة ومسند أحمد وموطأ مالك وسنن

---

(١) مناقب الشافعي ١/ ٤٧٥.

الـدارمي. وعلى بعض شـروح هـذه الكتب وعلى طـريقـة هـذه الكتب وخصائصها.

وأخيراً فإن الولاء للكتاب والسنّة يوسـع مجال عمل الـداعين إلى الله ويتيـح لكثير من الناس أن يقبلوا عليهم. . إن الدعوة إلى الله إذا كانت ملتزمة الصفة الإسلامية العامة التي يكون الولاء فيها للكتاب والسنّة لا لمذهب ولا لرجل ولا لدولة استجاب لها كل من كان فيه خير من المسلمين.

* وفقنا الله إلى الخير واستعملنـا في طاعتـه والحمد لله رب العالمين.

السبت ١٥ شوال سنة ١٤٠١هـ
١٥ آب سنة ١٩٨١م

الفهرس

• • •